

الفصل الرابع

مقارنات : كلية مارلبورو ورايزنجهيل

Marlborough College and Risinghill

لقد شئت تقسيم نظام تعليمنا الثانوى فى الفصل الأول من هذا الكتاب بطريق ثلاثى المجرى . وتحتل المدارس الانجليزية ، الخاصة ، المجرى الداخلى العلوى المحظوظ ولكن هذه المكانة المختارة لا تستثير سوى قليل من التعاطف أو الاهتمام الشعبى بالنسبة لما يستثيره الانقسام بين المجرى الأوسط ، المدارس الأكاديمية ، والمجرى الخارجى ، المدارس الحديثة ، لأن المدارس التى تعرف بالمدارس ، الخاصة ، Public منعزلة عن حياة الجمهور الحقيقى وأبعد منا عن أبناء هؤلاء الجماهير . ويذكرنى هذا الموقف دائما بالموقف بين اليعازر Lazarars والرجل الغنى :

« بيننا وبينكم هوة عظيمة قد أثبتت حتى أن الذين يريدون العبور من هنا إليكم لا يقدرُونَ ولا الذين من هناك يجتازون إلينا ، (انجيل لوقا اصحاح ١٦ عدد ٢٦) .

وثمة حادثتان فى الستينات من هذا القرن جعلتنا نحس بمدى عمق واتساع الهوة بين مدارس الأغنياء ومدارس الفقراء فى إنجلترا فى الوقت الحاضر بحيث لا يتسنى عبورها . وعملنا أيضا على أن تثير بشدة أعمق القضايا المترتبة عن قبول مبدأ « المدرسة الشاملة » .

مدرسة ريزنجهيل : Risinghill

فى عام ١٩٦٠ افتتحت فى انلنجتون Islington بمنطقة لندن London County Council مدرسة شاملة جديدة تبعد مسيرة بضعة دقائق عن

كنجس كروس Kings Cross بل وأقرب من ذلك لبنتو نفيل جيل Pentonville Jail لقد كانت منطقة قدرة كشية . وكثير من منازلها كانت متآكلة بسبب الرطوبة والبلى وكان لهذا اثره على حياة الأسر غير المحظوظة التي لم يكن أمامها سوى أن تقطنها. لقد كانت منطقة تتسم بالعنف والدعارة بحيث لم يكن أطفالها يعرفون من الرجال الذين يشاركون كل بدوره سرير امهم هو الأب الحقيقي الذي انجبهم .

وكبر الأطفال فصاروا يمارسون العنف باعتباره شيئا طبيعيا . وكلما كان التعب يستولى على امهم أو عندما كانت تعجز عن اعالتهم فإنها كانت تأخذ في صفهم . بطريقة آلية، وكان بقاؤهم في مجاهل الشوارع يعنى انضمامهم إلى إحدى العصابات وكان على كل واحد منهم أن يبرهن على أنه بنفس الصلابة والعدوانية التي يتمتع بها الولد الآخر أو البنت الأخرى . ولقد أحس بعض مدرسي التعليم الابتدائي الذين يعيشون خارج المنطقة وقد رأوا كثيرا من تلاميذهم كوحوش صغيرة يجب استئناسها — بأن العقوبة البدنية أداة ضرورية للضرب على ايديهم للمحافظة على النظام . وكان هناك مالا يقل عن تسع عشرة قومية، كما كان ربع السكان من غير الانجليز. وكان يلوح فوق كل شيء بظلال بنتو نفيل Pentonville ولكن أى أمل وأى إيمان بالمستقبل يمكن أن يكون لدى طفل خائف مضروب يعلم ان عابر ذلك الطريق قد تم شق رجل . إنها تذكر دورى بالكراهية التي تشتعل بها قلوب الكبار ؟

لقد كانت المدرسة الجديدة بالتأكيد « مدرسة » حى . ولكنه « حى » خاص بطبقات مهضومة فقط لها مشكلات اجتماعية تفوق تلك المشكلات الموجودة بكركي Kirkby . إنها لم تكن مدرسة شاملة بالمعنى الذى قامت عليه مدارس لندن التي تستقبل تلاميذ بقدرات متوازنة . فعندما فتحت أبوابها في عام ١٩٦٠ لم يكن بها سوى ١ ٪ من الأطفال في الدرجة العليا من

القدرة التحصيلية وكان حوالى ٥٠٪ منهم فى أحط مستوى تحصيل . وليست هناك أية مدرسة طالبت بأكبر المساعدة فى توفير أحسن مدرسين وأحسن أبنية وبأجهزة وأدوات حظيت بدعم متعاطف من جانب السلطة التربوية المحلية ، مثل مدرسة ريزنجيل ، لقد قامت بخدمة ما كان واضحاً أنه منطقة لها أولوية تربوية . قبل أن تقوم لجنة بلاودن Plouden Committee بنعت هذه العبارة القبيحة والصماء بمدة طويلة .

أما الرجل الذى عين ناظراً لهذه المدرسة فقد كان ميشيل دوين Michael Duane ضابط سابق بالجيش برتبة ماجور من الجناح اليسارى وكان قبل ذلك ناظراً للمدرستين « حديثتين » فى هرتفوردشير Hertfordshire وصافوك Suffolk واصطدم بالعناصر المحافظة فى كلا المكانين فى اثناء اضطلالعه ببناء مدرسته وفق خطوط تقدمية . وكان دوين صديقاً لنيل A . S . neill الذى كان لافكاره وخبرته الترسلية أو التساهلية أثر كبير فى العالم . ولكن د نيل ، كان متمتعاً بالحرية (لولا المتاعب المالية) التى تتوافر لمدرسة مستقلة . ولكن هل كان من الممكن نقل اتجاه د نيل بنجاح إلى مدرسة تعولها وتتحكم فيها سلطة محلية حتى ولو كانت سلطة ذات شهرة تربوية عالية مثل منطقة اندن التعليمية .

وبالتأكيد فإن الكس بوم Alex Bloom وهو يأخذ بنفس الاتجاه إلى حد بعيد قد حقق الشيء الكثير فى مدرسة سان جورج ان دى ايست Sailnt George - in - the-East وهى مدرسة « حديثة » تقع فى شارع كابل Cable بستيى Stepney . لكن كان ينظر إلى « بوم » على اعتبار أنه شخص غريب الأطوار وكانت مدرسته على كل حال « مجرد » مدرسة ثانوية حديثة . أن السلوك الشاذ والتجارب الغريبة على أطفال قضى عليهم سلفاً بأنهم فاشلون كان أحد الأشياء . ولكن فى ريزنجيل كانت الصورة الشاملة (وبجانبها شهرة

منطقة لندن التعليمية (I.C.C) كانت هي نفسها حرك اختبار . كان التجريب خرياً بأن ينظر إليه بشكل أكثر تحوفاً ، وكان هناك بالتأكيد مجال أقل للفشل .

وكان « دوين » ، وهو قوى في مظهره وفي شخصيته على السواء يبدو ملائماً جداً للاضطلاع بالمحاولة . وكان لديه النوع الحقيقي من الخبرة العملية المرتبطة بالواقع . لقد كان متحدثاً طليقاً وجليداً على العمل سمحاً يأتي إليه الأطفال والآباء بسهولة ، وكان اجتماعياً يحسون بتعاطفه واستعداده لبذل كل ما لديه بغير تحفظ لمساعدتهم :

لقد كانت هذه خصائص جميلة ونادرة . فالنظار من هذا الطراز هم أفاض ينبغي الثناء عليهم ودعم جهودهم . ولكن مامن ناظر تم كاله ، وثمة نقد واحد وجه ضد ميشيل دوين — سواء عن عدل أو عن غير عدل — هو أنه كان يتوقع من مدرسيه المساعدين أن يكونوا أكثر نضجاً مما هم عليه في الواقع ، وأكثر بما عليه معظمنا أيضاً . ولقد أحس البعض أنه يتوقع منهم أن يكذبوا في هذا المضمار القاسي بكل قلوبهم كما فعل هو نفسه دون أن يستدعي ذلك كلمة أو تشجيعاً منه بل وحتى بدون التوجيه المتوقع منه ، وكانوا يقولون « لنا الحق في التوجيه » . وباختصار فيينا كان يمارس القيادة بتقديم المثل والقوة كانوا يتوقعون منه قيادة تقليدية وخاب أملهم عندما لم يحصلوا عليها . ومن ثم بدأوا يحسون بعدم الطمأنينة ثم نشأ سوء التفاهم بين « دوين » وبعض أفراد هيئة التدريس (وليس جميعهم) .

وعندما يحدث موقف كهذا تكون المشكلة الحقيقية ليست هي البحث عن المصيب أو البحث عن الخطيء ، وإنما هي الموقف القائم ذاته . ففي ظل ظروف كهذه يخف التوتر عادة بمساعدة وتعاطف المسؤولين داخل المدرسة وخارجها . ولكن للأسف يبدو أن دوين لم تواته فرصة كهذه . لقد وقف

وحده وكان الشخصية الرئيسية فيما كان بحق مأساة درامية كبيرة من تلك المآسى التى يجعلها عالم التربية شغله الشاغل لدراستها ولكنه نادرا ما يخلقها . ولكنى أنظر إلى المستقبل .

وعلى الرغم من نظرة ميشيل « دوين » المتطرفة ، فإن مدرسة رايزنجهل فتحت أبوابها على أسس تقليدية تماما بل ومحافظة . وكان هناك سبب وجيه لذلك . فع أن المباني كانت جديدة ، كانت المدرسة إلى حد كبير خليطا من عدد لا يقل عن أربع مدارس محلية ثانوية « حديثة » أو فنية غير مختلطة . وكذا وبعض المدرسين ذوى النظرة المحافظة وربما من المتضايقين بسبب الظروف القاسية التى اشتغلوا فى ظلها لمدة طويلة قد فرض عليهم عن غير رغبة التواجد فى موقف كان يتطلب رجالا ونساء يستحسن أن يكونوا على جانب من الخبرة ، ولكن قبل كل شئ يجب أن تكون لهم قلوب شابة وطموحة حتى يقبلوا تحديا مرعبا كذلك التحدى الذى يحتمل أن يجده الشخص فى أى مكان بانجلترا . الأطفال الكبار تضايقوا من الانتقال إلى المبنى الجديد ، وكان قيام الشجار بين عصابات الأولاد من مختلف المدارس مواكبا لميلاد رايزنجهيل . ولذا فقد بدأ دوين العمل بحذر . والواقع أن النظام المدرسى قد استمر على أسس تقليدية فيما بعد .

وصنف الأطفال فى مجموعات عريضة تبعا للقدرة .. وكان هناك « ألوقات » أو عرفاء ، كما كانت هناك جوائز وأيام للخطابة . وكان هناك نظام للأسر من النوع الشائع بالمدارس الأخرى . بل كان هناك عقاب بدنى . وعلى الرغم من أن دوين نفسه كان يكره الضرب ، فإن منع الضرب لم يصدر أصلا عنه بل أتى نتيجة قرار هيئة التدريس بعدم الاستمرار فى الضرب ، ولم يكن دوين حاضرا ذلك الاجتماع . ولكن الذى فعله « دوين » ، وأثار دهشة وفزع المدرسين ، هو أنه أخبر التلاميذ بالقرار ، واعتقدوا أن هذا

سيجلب الفوضى . ولكن ذوين من جهة أخرى زعم أن الأطفال بحاجة لمعرفة ذلك بشكل طبيعي وإلا فإنهم سيكونون عرضة لتهديد ليس له أساس ويكون ذلك كذبة صارخة .

أما عما حدث بعد ذلك فقد عرضت له ليلى برج Leila Beig بتفصيل كامل في بحث سوف يعتبر في المستقبل واحداً من أغرب البحوث ، ولكنه في نفس الوقت من أهم البحوث القيمة التي أجريت في تاريخ التربية الإنجليزية على الإطلاق ^(١) . وكتابتها برغم ما فيه من حماس ومشايعة يعتبر بمثابة سجل مصنف ياتقان شديد لاستقصائها عن الموضوع برمته . أضف إلى هذا أنها كاتبة تمتاز بالقسوة على الإحاطة بالجو الذي كان سائداً ، وعلى رسم الشخصيات كما أن لديها حاسة الحتمية التراجيدية للقصة التي تورخ لها . وبدأت أقدر مدى اختلاف هذا العمل في نوعه عن الكلام الطنان الذي اعتدنا نحن المشتغلين بالتربية أن نفرضه على زملائنا .

وخلال السنوات الثلاث الأولى من عمر رايزنجيل القصير استطاعت أن تبرز بعض النجاح برغم الصعاب المستمرة التي واجهتها . ففي عام ١٩٦٠ نجح خمسة من تلاميذها في المواد في الشهادة الثانوية Gce المستوى العادي . وفي عام ١٩٦٤ نجح ٤٢ تلميذاً في عدد من المواد يتراوح بين مادة وست مواد في المستوى العادي ، والتحق طالبان (أحدهما إنجليزي والآخر تركي قبرصي) بالجامعات . وعندما بدأت المدرسة في عام ١٩٦٠ كان هناك ٩٨ طفلاً تحت المراقبة لسوء السلوك ، وفي عام ١٩٦٤ كان عدد هؤلاء تسعة فقط .

ومن بين الأحداث الجديرة بأن تذكر تلك المسرحية العظيمة المؤثرة

(1) Risinghill : Death of a Comprehensive School. (Penguin, 1968 .

التي كتبت عنها جريدة إيزلنجتون Islington Gazette قائلة :

إن الألاعيب البالية ليست من أجل رايزنجهيل . وإنما لرايزنجهيل نجاحاً في أحداث الأثر بفضل ما استعانت به من ملابس فاخرة شديدة تماماً بملابس الملك هيرودوس والملوك الثلاثة الذين أتوا من المشرق . ولرايزنجهيل تأثير موسيقاها الفاخرة المجلجلة وما صاحبها من كورال عظيم . لرايزنجهيل التأثير الناجم عن تعدد أجناس الممثلين مما أضفى السناء الشرقى والصدق الحقيقى على هذه القصص المثيرة للغاية . لقد أخذت أبكى فى صمت . وقد غمرنى الانفعال لدى مغادرتى شارع رايزنجهيل سائراً فى ليلة قاسية البرد من ليالى شهر ديسمبر منهدراً إلى شاييل ماركت Chapal Market بعد أن شاهدت أحسن مسرحية وطنية كان لى شرف وحظ مشاهدتها .

والتحية أيضاً لرايزنجهيل (كما تضيف لى برج) لأنها استطاعت أن تحقق طفولة حقيقية لأبنائها .

لقد كان للمدرسة فى عام ١٩٦٤ د ألفة ، من الأولاد من غرب الهند ، د ألفة ، يونانية قبرصية من البنات . وفى الوقت الذى كان اليونان والأتراك فيه يذبجون بعضهم بعضاً فى قبرص ، كان أبناء هاتين القوميتين يحيون معاً فى سعادة بريز انجيل . ولقد احتج الملحق الثقافى للمفوضية السامية القبرصية فى أوائل عام ١٩٦٥ ضد الاقتراح بغلق المدرسة وقال : « إن رايزنجهيل قد نجحت فى أن تفعل شيئاً لا تستطيع الأمم المتحدة القيام به » .

وأنا شخصياً أذكر فى داخل المدرسة بوجه خاص ذلك العمل الخلاق فى نطاق الفن والانهماك الكامل الملك الأطفال « King of the Teds » فى عمله هناك . وأنى لأذكر أيضاً الطريقة الطبيعية التى كانت تشيع فيها الصداقة والطمانينة التى كان يدخل بها الأطفال إلى مكتب دوين ، كما كانوا يفعلون مع بلوم Bloom فى ستبنى Stebney وهى الطريقة التى يجدر أن يماثلوا بها

أباً محبوباً : أنهم كانوا يعتبرون الترحيب بهم في الدخول إليه أمراً عادياً .
إن الوصية القائلة « دعوا الأولاد يأتون إلى ولا تمنعهم » ، قد نسيها كثير
جداً من نظار المدارس إذ غطت عليها المهام الإدارية الروتينية .

وباءت كل الجهود بالفشل إذ وجد دوين ، نفسه في حالة خلاف مع
مجموعة كبيرة من هيئة التدريس في مدرسة محفوفة بالمشكلات الناجمة عن
النقص في عدد المدرسين (وبحاجة المدرسين المناسبين) وعن تجمع المباني
بطريقة رديئة التخطيط ، وعن الصعاب الشخصية التي كان محتوماً أي يحضرها
كثير من الأطفال معهم من بيوتهم . وطالبت تلك المجموعة من المدرسين
بالمحافظة على الطرائق التقليدية لاسيما فرض النظام والسلوك المقبول المؤلف
لهم . ووجد دوين الذي لم يستطع خيانة ضميره أو الأطفال الذين صاروا
يثقون فيه أن من المستحيل أن يدعن مثل هذه المطالب . وكان مفتشه المحلي
غير متجاوب معه ، ويبدو أن سلطات التعليم المحلية قد أحست بالقلق بسبب
الشائعات التي أخذت في الانتشار وخشيت من السمعة الرديئة التي قد تلحق
المدارس الشاملة ومجلس مدينة لندن Lcc على السواء .

وعند هذا الحد لم يكن هناك سوى طريق واحد لإنقاذ الموقف هو
اتخاذ خطوة حاسمة من جانب سلطات التعليم المحلية ، وكان الموقف بحاجة
— وهو ما كان يحق لمثيل دوين بكل تأكيد أن يتوقعه من فتح المدرسة — إلى :
أولاً — لدعم الشعبي المستمر الذي كان دوين يحاول الحصول عليه مع
مساعدة من جانب السلطات التعليمية . ثانياً — وضع خطة مدروسة لجذب
المدرسين القديرين والمتحمسين لشغل الوظائف الحالية حال وجودها (وهو
أمر غير مستحيل مادام المدرسون يعرفون أن السلطة تساند التجربة
بحزم) . وثالثاً — توفير الطمأنينة والدعم المستمرين للناظر في مواجهة
الصعاب التي كان يحتمل وقوعها .

وإني أعتقد أن سياسة كهذه كانت تساعد على انقاذ رايزنجهل بل وتحافظ على إيمان الآباء والأطفال الذين علقوا أملا عريضا على ما تقدمه المدرسة الشاملة الجديدة ، بل وكانت تعمل أيضا على تقوية سمعة منطقة لندن التعليمية ذاتها إلى حد بعيد . ذلك أن رايزنجهل كانت حالة للاختبار . فلو أمكن نجاح المدرسة الشاملة بها إذن يمكن أن تنجح في أى مكان آخر .

ولكن للأسف ظهر أن نظرة مجلس مدينة لندن Lcc كانت عميقة محافظة تخشى السماح باتخاذ موقف كهذا . ربما ارتكب د دوين ، أخطاء في سياسته . ولكن من من الرواد الأوائل لا يقع في أخطاء ؟ على أن أهدافه كانت صحيحة بلا ريب ، كما كانت مساهمته الشخصية في كثير الاتجاهات عظيمة . لقد كان بحاجة إلى مساندة لا إلى معارضة . وكانت مواهبه العظيمة كنزاً لأية سلطة تعليمية تؤمن بحق فيما كان يحاول أن يفعل . وليس بوسعي في خضم الاضطراب العظيم الناجم عن التقارير والآراء المتصارعة إلا أن أسجل استنتاجاتي الشخصية . لقد كان شعورى الشخصى - كما هو أيضا الآن - هو الحزن الشديد . لم يكن هناك أوغاد بل إنه في أزمات كهذه تعمل العواطف على حياكة المؤامرة ، وعليه فقد أحال بعض الرجال التافهين انتصارا كبيرا كان متوقعا إلى كارثة . وافقد مارد مجلس مدينة لندن القدرة على تكيف قامة جسمه . وفي عام ١٩٦٥ أغلقت مدرسة رايزنجهل بناء على الاحتجاج بالنقص في عدد التلاميذ ، وهي حجة لقيت قبولا واسع النطاق (برغم المنكرين لها) ، وبرغم الاحتجاجات الشديدة من جانب كثير من الآباء .

وكان على الأبطال المحليين لحركة العمال الديموقراطية الذين ظلوا منتظرين مدة طويلة . وعلى من لقبوا أنفسهم بقيادة الترية التقدمية أن يقتنوا أثر د ميشيل دوين . في طريقه الشاق بعد أن أصبح الجو مناسبا ، وابتدأت الظروف لذلك في الانتخابات بعد ثلاث سنوات فقط من غلق المدرسة .

ولم تكن رايزنجهل مأساة فقط لناظرها وأطفالها والسلطة التعليمية بداخل لندن Inner Lonpon Epuacatlon Authority (التي خلفت مجلس مدينة لندن Lcc) بل كانت مأساة لانجلترا . ذلك أن تصرف لندن كان إشارة للسلطات الأخرى بأن تتوقف عن إحراز أى تقدم ، وبتأجيل البحث العميق الهادف إلى تناول المشكلات الاجتماعية والتربوية بالمناطق الفقيرة المتخلفة . ومثل هذا التناول لا يمكن أن يتم بمجرد إعادة التنظيم . فالمدرسة الشاملة يمكن أن تكون تسلطية كأية مدرسة أكاديمية أو حديثة ، نعم إن المدرسة الشاملة التسلطية قد تؤدي إلى إزالة إيجابية للأفكار الخاطئة عن الإصلاح نظرا لأن الناس يتوقعون منها أشياء أفضل .

ومع هذا لم تكن تلك المأساة غير قابلة لتخفيف حدتها . فنظرا لأن رايزنجهل أصبحت قضية مشهورة Gause Célèbre فإن الموضوعات المتنازع عليها طرحت للنقاش على نطاق أوسع أكثر مما كان متوقعا لها . ولا يستطيع الطلاب المعلمون مثلا أن يعضوا عن مواجهة هذه القضايا — ومهما كانت النتائج التي ينتهون إليها ، فإنهم يعرفون أن المواقف والممارسات التي سوف يأخذون بها أنفسهم في المدرسة هي على جانب حيوى من الأهمية لمجتمعنا . إن الوضع النظرى بالربط بين البيت والمدرسة كذلك ومراجعة أفكارنا فيما يتعلق بدور المدرس وسلطته ولإعادة وضع الحوافز القديمة في البوتقة المنصهرة يصبح له أهمية ومعنى جديد في حالة رايزنجهل .

ولا شك أن الاستشهاد في سبيل المبدأ يكون في بعض الأحيان أفضل ضمان للبقاء في عقول الناس .

وفي نفس السنة التي أغلقت فيها رايزنجهل بدأت تجربة من طبيعة مختلفة جدا .

المدارس « الخاصة » « The Public » Schools :

على الرغم من أن مستقبل المدارس « الخاصة » لم يثر بعد مشاعر قوية لدى الشعب ، فقد شاهد كثير من نظار هذه المدارس نمو المدارس الشاملة في نظام التعليم الحكومي باهتمام بل وعناية في بعض الأحيان . وكان المستر كروسلاند Mr Crosland بصدد تشكيل لجنة المدارس الخاصة ، لكي تقدم توصياتها عن أحسن طريقة لتحقيق التكامل بين المدارس الخاصة وبين نظام التعليم الحكومي . . ويبدو أن الوقت قد حان لإعادة تقدير قيمة تلك المدارس .

وعندما يسمع رجل الشارع أو يقرأ عن المدارس « الخاصة » فإنه قد يفكر في عدد قليل من الأسماء المشهورة مثل إيتون ETON وهارو Harrow وونشستر Winchester وشخصية مثل ارنولد ناظر مدرسة رجبي Arnold Of Rugby أو في قصة « Tom Brown's Schooldays » . وقد يذكر بعض الأفكار التي كادت تنسى مثل قيام التلميذ الصغير بخدمة تلميذ أكبر منه (fagging) وألوان الزاج والمداعبات المتطلبة من التلاميذ Dormitory rags والالتزام بقواعد المباريات القاسية التي تتعلق أصولها بعمليات مثل « المنازلة » ، والتعرض للضوء الخاطف البصر ، واتباع الوصية الحادية عشرة القائلة : « أفرغ كامل قوتك في اللعب . . أفرغ كامل قوتك في اللعب . . واستمر في اللعب بالمباراة » . انها صورة غامضة ومشوشة ، ولكنها في نفس الوقت صورة رومانسية إذ أن قصص الأولاد حول المدرسة قد تركزت إلى حد بعيد في حياة الإقامة الداخلية بالمدرسة .

والشيء المؤكد عن المدارس « الخاصة » « Public » ، أنها ليست مدارس الشعب . ولا يوجد تعريف معين لهذه المدارس ، من المدارس النهارية والمدارس الداخلية الصغيرة سواء أكانت مستقلة أم معانة بوزارة التربية

والسلطات المحلية تطلق على نفسها اسم « Public » School .
ولكن المدارس الخاصة Public كما هي صورتها في عقول الناس مهمة
كانت غامضة عند استخدامهم لهذا اللفظ ، هي في الواقع المدارس المستقلة
الداخلية الكبيرة الخاصة بالأولاد والتي يبلغ عددها حوالى ثمانين مدرسة
مثلت في مؤتمر نظار المدارس Headmaster,s Conference ويمكن تقسيم
هذه المدارس بوجه عام إلى ثلاث فئات هي :

(١) المدارس الضخمة المشهورة التي أسست منذ مدة طويلة مثل ونشستر

Winchester وإيتون Eton ووستمنستر Westminster .

(ب) المدارس الأكاديمية التي انتشرت في القرنين الثامن عشر وبداية
القرن التاسع عشر وكانت تستهدف ما هو أبعد من مجرد اشباع حاجات
البيئة المحلية وتضم هذه الفئة هارو Harrow ورجبي Rugby وشروسبرى
Shrewsbury وربتون Repton وابنجهام Uppingham .

(ح) المدارس التي كانت قد أنشئت في منتصف القرن التاسع عشر لتقدم
لأبناء الأغنياء من رجال الصناعة نفس التربية الراقية المتوافرة لأبناء أصحاب
الأرض الأعيان الذين يتمتعون بها (أويصح أن أقول يطبقونها) بالمدارس
والخاصة ، القائمة . وتضم هذه المؤسسات الجديدة مدرسة مارلبورو
Marlborough (أنشئت عام ١٨٤٣) وبراد فيلد Bradfield (١٨٥٠)
وولنجتون Wellington (١٨٥٢) وكليفتون Clifton (١٨٦٢) .

والمجموعتان الأوليان من المدارس تقدم معلومات كثيرة أمام المترجم لها .
ذلك أن شهرة كل واحدة منها قد تحددت برمتها تقريبا في ضوء شخصية
ناظرها . فلقد جعل صمويل بتلر Samuel Butler الذي عين ناظرا لمدرسة
شروسبرى في عام (١٧٩٨) تحصيل العلم الهدف الأول من مدرسته
تماما كما فعل توماس ارنولد Thomas Arnold الذي صار ناظرا لرجبي

فى عام ١٨٣٨ بتأكيده على الطابع الخلقى ومسئولية الأولاد الكبار . وفما بعد نجد أن ثرينج Thring ناظر أبنجهام قد أخذ يؤكـد حق كل ولد فى أن يستقل وحده فى دراسة خاصة به ، كما أخذ يؤكـد أهمية الموسيقى والفن فى التريية . واتبع ساندرسون Sanderson أفكار وآراء ثرينج فى مدرسة أوندل Oundle فيما بين عامى (١٨٩٢ و ١٩٢٢) وعمل اصلاحات شاملة فى المنهج كإدخال الورش الضخمة والطريقة الحديثة فى دراسة العلوم . على أن جميع النظار لم يكونوا بالضرورة رجالا عظاما . فلقد عمد الدكتور كيت Dr Keate الذى كان ناظرا للمدرسة ابتون فيما بين عامى (١٨٠٩ و ١٨٣٤) إلى حبس حوالى ٢٠٠ تلميذ من الفصول المتقدمة بفصل واحد . وفى ذات مرة قام هذا الرجل المثبت بالنظام والسريع الغضب بمجلد تلاميذ فصل يقوم بتقويتهم اعتقادا منه أنهم مذبنون وقد أرسلوا إليه لمعاقبتهم .

كانت الرئاسة وخدمة الصغير للكبير من الملاح المألوفة تماما فى حياة المدرسة الخاصة . ومع هذا فإن المدارس الجديدة التى لم يكن بها تقاليد صارفة قد نللت المدارس القديمة بل وقدمت مواقف لا تقل رداة عما كان يحدث بها . كتب السير سيرل نوروود Sir Cyril Norwood فى عام ١٩٢٩ قائلا :

د لنفكر لحظة فى مارلبورو التى كانت مملوءة بالأولاد فى عام (١٨٤٣) وكان معظمهم وافدين من مدارس القساوسة بالأقاليم . وفى عام (١٨٥٠) أخذت هذه المدرسة أحد الأولاد الجدد وهو طفل فى الثامنة من عمره ثم ربط إلى مقعد بالمدرسة العليا Upper School حيث كان هناك حشد من الأولاد وكوى بالنار فى حضورهم باستخدام مسعر ملتهب إلى درجة الاحمرار بعد تثبيت ساعده بإحكام . وبعد مرور ١٧ عاما شاهدت الندبة ، مكان السكى وكان يمتد من الساعد حتى الرسغ . وعلى حـد تذكر ذلك

الشخص الضحية لم تكن هناك عقوبة على الرغم من أنه كان عليه أن يقضى ثلاثة أسابيع بالمستشفى. (١)

وبمرور السنوات أخذت المدارس ، الخاصة ، في التغير . قليلا . ففي عام ١٩١٧ قام إليك ووه Alugh Waugh بنشر كتابه « مذكرات الشباب ، The Loom of Youth » ، الذي قام بكتابة معظمه بينما كان ما يزال تلميذا بالمدرسة . ولقد كانت هذه القصة الخالدة بمثابة اتهام عنيف موجه ضد الحياة بالمدرسة الداخلية في ذلك الوقت ،

وعاد الاهتمام بالمدارس ، الخاصة ، في الظهور في أوائل الأربعينات من هذا القرن . ولقد كان من النتائج المترتبة على حرب ٣٩ - ١٩٤٥ الاهتمام الكبير بالتربية وبوجه خاص بتوفير فرص تربوية متكافئة للجميع . وقد أدى هذا إلى سلسلة من الاتقادات ضد المدارس ، الخاصة ، باعتبار أنها موطن الامتيازات ، وباعتبار أنها أما كن يتلقى فيها أبناء الأغنياء من الآباء تربية أرقى في كل شيء عما يمكن أن توفره المدارس المحلية . ولقد أراد الكثيرون جعل المدارس ، الخاصة ، على صلة أوثق بالنظام التعليمي القومي بحيث تصبح التربية الممتازة التي تقدمها ميسورة لأطفال الآباء الذين لا يقدرون على مصروفاتها .

وكان هذا المطلب هو الدافع إلى تعيين لجنة فملينج Flemig Committee التي نشرت تقريرها في عام ١٩٤٤ عن المدارس ، الخاصة ، وعلاقتها بالنظام التعليمي العام . أوصى هذا التقرير وباختصار بأن على المدارس ، الخاصة ، أن تخصص ٢٥ ٪ من أماكن القبول بها كل عام للأولاد الذين تلقوا تعليمهم بالمدارس الابتدائية الخاضعة للنظام القومي . ويتم اختيار هؤلاء

(1) The English Tradition in Education (1929) quoted in Lamb, The English at School. (Allen & Wnwin), p 170..

الأولاد بواسطة لجان اختبار شخصى محلية ويمنحون منحاً مالية عن طريق مجلس التعليم Board of Education كما كان وقتئذ (الآن وزارة التربية) بقصد مساعدتهم وتغطية مصروفاتهم المدرسية . ولكن لم يؤخذ بتوصيات لجنة فلنج مطلقاً على الرغم من تشجيع سلطات التعليم المحلية على عمل ترتيباتها الخاصة مع المدارس «الخاصة» المجاورة . فبمقتضى قانون عام ١٩٤٤ أصبح من واجب السلطات التعليمية المحلية أن :

د تعنى بضرورة توفير الإقامة الداخلية الكاملة سواء بالمدارس الداخلية وغيرها للتلاميذ الذين يرغب آباؤهم أو السلطة المحلية فى إلحاقهم بهذا النوع من المدارس .

وعلى كل حال فع أن قلة من سلطات محلية قد عملت مثل هذه الترتيبات مع المدارس «الخاصة» فى منطقتها أو ما قاربها ، لم تتخذ معظم السلطات أية خطوة عملية . ويمكن تلخيص أسباب ذلك فيما يلى :

أولاً — النفقات . فالمصروفات الدراسية فى مثل هذه المدارس الداخلية تتراوح الآن بين ٣٥٠ جنيهها وبين ما يزيد عن ٦٠٠ جنيه فى السنة .

ثانياً — أن المدارس الأكاديمية المحلية لا تريد أن تحرم من أفضل أولاد منطقتها .

ثالثاً — يحتج المعارضون السياسيون بأن دعم المدارس «الخاصة» وانعاشها بأحسن العناصر من المدارس المعانة يكون أشبه بنقل الدم إلى حيوان طفيلى . إن ذلك يخلد التمييز الطبقي ولا يعمل على إزالته .

رابعاً — يشعر بعض المعارضين بأن التربية بالمدارس الخاصة رديئة أساساً . نعم هناك بعض المزايا جديرة بالتقدير مثل اتساع المساحة وعظمة التجهيزات والتدريس وتهيئة الفرصة لمواصلة التحصيل . ولكن ليس هناك ما يبرز عدم توافر كل هذه الأشياء فى مدرسة نهائية عادية جيدة . بيد

أنه في مقابل تلك المزايا هناك كثير من الصفات الأخرى التي تعد دلعنة ، في نظر المربين دالتقدميين ، وذلك مثل تحكم الأولاد الكبار في الأولاد الصغار وما يصاحب ذلك غالبا من قدرة على ضربهم . ثم هناك الحوافز المتعلقة بالتنافس والعقوبة التي ما يزال يعتبرها الرجل العادى من المدرسة ، الخاصة ، الوسائل الناجعة الوحيدة لا في المدرسة فحسب بل وفي المجتمع ككل . ثم هناك التمسك بعدم الاختلاط أى بالمجتمع الرهبانى بما تشيع فيه من أفكار وممارسات غريبة عن الجنس وما قد يترتب على ذلك من نتائج انفعالية صعبة في الغالب لدى الأولاد في حياتهم ككبار .

وحتى دإليك ووخ ، Alec Waugh برغم جميع نقدراته التفصيلية لم يستطع إدراك أن طبيعة النظام التعليمى نفسه هى التي أنتجت الأشياء التي أُرهِبته . لقد كتب الكلمات التالية في عام ١٩٢٢ ولكن رجال المدرسة ، الخاصة ، سيقولون نفس الشيء في عام ١٩٧٢ :

دإن أى ناقد للمدارس الخاصة يجد نفسه مسوقا للتو إلى موقف زائف فإذا ما تنفس أى شخص بكلمة ضدها اليوم ، فإنه يعتبر ثوريا ، ومن الناحية السياسية اشتراكيا ، وأنه يرغب في أن يحل التنافس محل التعاون وأنه نذير لتدمير دأحمر ، . وهذا بالطبع بعيد كل البعد عن الحقيقة . ذلك أن معظم الذين هاجموا تلك المدارس ليسوا اشتراكيين بالمرة فهم يعتبرون الأقلية المستنيرة الشكل الأمثل للحكومة . وما من أحد يريد القضاء على المدارس الخاصة . وما من أحد بلغ به الغباء إلى هذا الحد .

ومرة أخرى :

دإنها لحقيقة مؤسفة لكنها أكيدة أن الناس لا يعملون إلا تحت تأثير الرشوة أو التهديد . .

ومنذ وقت قريب كان هناك نقد من داخل المدارس دالخاصة ، نفسها .

فالدراسته التي قام بها اثنان من خريجي ويكهام Wykeham هما يشوب Bishop وويلكنسون Wilkinson^(١). ولعلها أعمق دراسة أشارت إلى بعض العوامل مثل إعاقه التحرك الاجتماعى والانحراف إلى دوامة التنافس للحصول على الوظائف العليا. وربما لا يكون مستغربا أن تعلم أن رئيس وزراء المحافظين ستانلى بولدوين Stanley Baldwin قال لرابطة هارو Harrow Association فى عام ١٩٢٣ د إنى أذكر كيف كان هناك فى حكومات سابقة أربعة أو خمسة وزراء من خريجي مدرسة هارو ، ولقد عزمت على أن أعين ستة ، فأهم من هذا أنه بعد مرور جيل كان رئيس الوزراء العمالى كليمنت اتلى Clement Attlee واقعا تحت نفس التأثير، ويتضح هذا فى قوله د إذا تساوت كل الجوانب فلا أجد ما يمنعنى من اختيار شخص من مدرستى (مدرسة هايلى برى Hailey-bury) ... وإنى اختار جوفرى فريتاس Geoffrey Freitas .

ويصور كل من يشوب وويلكنسون فى أحد أوصافهم د لوينشستر ، القيمة عالما بعيدا تماما عن الحياة المنحطة التي يحياها أهل رايزنجهل :

د لابد للشخص الغريب المتأمل أن يجد نفسه مذهولا ازاء كل ذلك الثراء فى الأرض وفى المباني التي لا يحيا فيه سوى خسمائة ولد . فهناك ملعب رياضى وملعب رياضى آخر ، وهناك كنيسة خاصة على مرتفع . . . وثمة عدد كبير من الحوائط والبوابات والمشايات والمجازات المقنطرة ولكل منها اسمه التاريخى الذى يجب على القادم الجديد تعلمه . إنه مكان مفعم بالجمال والجو الساحر لكنه جمال وجو العصور الوسطى أساسا . أنه يربط الرجل السهل القياد بمجتمع اقطاعى ضخم .

(I) Winchester and the Public School Elite (Faber & Faber, 1967).

وبرغم ما تقسم به المدرسة من جمال فإن «يشوب» و«ويلكنسون» يتفقدان عدم صلاحية هذا الجو الرهباني للأعداد للحياة الصالحة ، والنمو الانفعالي الناضج السعيد . «من الناحية التاريخية ، لم يكن الهدف الأول للمدارس الخاصة انتاج الأزواج والآباء . بل كان توفير عدد من القادة للحكومات والمهن وأخيرا الشركات .»

وربما تكون هناك العقدة التي يكمن فيها قلقنا الزائد حول المدارس «الخاصة» . إن مجتمعا يقوده رجال كرسوا أنفسهم من أجل وظائفهم على حساب الاتزان الانفعالي والعلاقات الشخصية المستقرة - أو على حد العبارة الدقيقة لنيل A: S. Neill أولئك الذين يضعون الرأس قبل القلب - مما سوف يعكس حتما تلك القيم الزائفة . وإذا كانت تلك السمعة الرديئة لمدارس انجلترا «الخاصة» فإن القليلين يجرءون على سؤال أنفسهم (وليس بصوت مرتفع مفتوح) سؤالا هو في الواقع السؤال الأساسي : «هل هذه مدارس صالحة حقا ؟ وهل مبادئها وما تسير عليه يمكن أن يكون مقبولا إذا ما طبق على النظام التعليمي للدولة وذاع بالمدارس المحلية التي لا تتمتع بنفس المزايا ؟»

تجربة مارلبورو :

في عام ١٩٦١ عين ماعهد مارلبورو ناظرا جديدا هو جون دانسي John Dancy . كان دانسي تلميذا ثم مدرسا في معهد ونشستر Winchester ثم صار فيما بعد ناظرا للمعهد لانسنج Lancing . لقد كان على وعي دقيق بالوضع الاجتماعي المتغير أكثر مما كان يعرف بعض معاصريه ، وكان مشهورا بالآراء الحرة غير المتطرفة ، وعندما قام ميشيل يونج Michael Young وبتر ولوت Peter Wilmott بعمل مسح في منطقة سويندون Swindon أتضح

ان ثلث الآباء عن لديهم أولاد في الخامسة عشرة قد يفضلون إقامتهم بمدرسة مثل مدرسة مارلبورو ، وأن أربعة أخماس هؤلاء يكونون عندئذ على استعداد للاسهام ببعض نفقات التعليم . ولقد رحب دانسي بإمكان القيام بتجربة بهدف التكامل . فقدم المال من جانب سويندون ومن جانب وزارة التربية ومن غير ذلك من المصادر . والتحق بالمعهد في سبتمبر عام ١٩٦٥ واحد وعشرون ولدا سبق نجاحهم في المستوى العادى للشهادة الثانوية بالمدارس المحلية في سويندون وويلتشر Wiltshire وانضموا هناك إلى ٨٠٠ ولد هم أولاد معهد مارلبورو الذين كانوا قد التحقوا بالمدرسة بالطبع بالطريقة العادية .

وقد غطيت التجربة منذ البداية بوحدة بحث . وكان الدكتور رويستون لامبرت Royston Lambert هو رئيس الوحدة ، وعرضت سوزان ستاج Susan Stagg وهى واحدة من مساعديه لأهداف التجربة وسيرها وتأنجها في بحث يعتبر نموذجا للتقارير الموضوعية بله للتقارير الواضحة المعالم .^(١) ومن بين « أولاد سويندون » - وهى التسمية التى اطلقت على المجموعة الجديدة كان هناك إحدى عشرة من المدارس الأكاديمية في سويندون ، وعشر من المدارس الحديثة ، في سويندون وتشينهام Chippenham ومالمسبرى Malmesbury . وجميعهم على كل حال كانوا قد نجحوا في أربع مواد على الأقل في امتحانات المستوى العادى وكانوا جميعا في حوالى السادسة عشرة من العمر .

وكانت بشائر التكامل الناجح حسنة بدرجة معقولة هى بالتأكيد أفضل بكثير مما لو كان النقل قد فرض بالإكراه بغير رغبة المدارس أو التلاميذ .

(1) Paper Three, « Integration : a Pilot Scheme : in New wine in Old Bottles! (Occasional Papers on social Administration no. 28, Bell, 1968.

وواضح أن تقديرات يونج — ويلهوت young - Wflmott كانت متفائلة أكثر من اللازم : فعندما أتى وقت الجدد لم يعد معظم الأولاد بسويندون يرغبون في مجرد السماع بأنهم ذاهبون إلى المعهد بغض النظر عما يرثيه آبائهم . ولكن الواحد والعشرين ولدا الذين تم اختيارهم لم تكن تربطهم وشائج متينة بالبيئة المحلية خلافا للغالبية . وكانوا بالإضافة إلى هذا طموحين للانخراط في الدنيا ، ومقتنعين بأن التدريس والمستوى الأكاديمي بالكلية سيكون أفضل بكثير عما هو في مدارسهم المحلية . وعرفوا نظرياً أن الظروف سوف تكون مختلفة في أمور كثيرة عن الظروف التي ألفوها ، ولكنهم كانوا على استعداد للتوافق . لقد أرادوا للتجربة النجاح . وكانت حقاً تجربة حيوية ينبغي أن تنجح بعد أن كرسوا لها سنتين من أهم سنوات حياتهم .

وفي المعهد أيضاً بذلت العناية لتمهيد الطريق للعمل . وعلم المدرسون والأولاد بما كان يجري وشجعوا على أن يكونوا متفهمين ومساندين للتجربة وقسم أولاد د سويندون ، على خمس أسر كان روادها من المدرسين المهتمين بالتجربة . وثمة قواعد معينة خففت من أجل مصلحتهم — مثل السماح لهم بالذهاب إلى بيوتهم يومى السبت والأحد بعد الظهر (دون المبيت هناك) . ولكن على الرغم من هذه العوامل المباشرة (كما تقول مس ستاج والدكتور لامبرت) :

د فإنه في نهاية السنتين أصبح ثلاثة أولاد بؤرة المشكلات السلوكية المستمرة ، وأعلن واحد من أكثر رواد الأسر من المدرسين تحمسا للتجربة أنه لا يرغب في أن ينضم أولاد من د نظام التكامل ، إلى أسرته مرة أخرى إلا إذا توافرت ضمانات أكثر ، وذلك لأن ثلاثة من هؤلاء الأولاد كانت تفتابهم حالة من وقت لآخر شخصها طبيب المدرسة بأنها د أعراض توتر ،

كما أن غالبيتهم برغم حسن توافقهـم ومشاركتهم فى النشاط ورضاهـم ، كانوا يصطـرعون ببعض القيم الأساسية التى تأخذ بها المدرسة الخاصة ، ويقوم عليها بنـيانها .

فما الخطأ الذى وقع ؟

على نحو ما لم يحدث خطأ . إن ما حدث كان صداما بين نوعين مختلفين من الثقافات ، لم يستطع أصحاب كل نوع منها أن يفهم الآخر إلا بطريقة غامضة . والدرس الذى تتعلمه هنا هو أن الحماسة وحدها لا تكفى : فالمصلحون بحاجة أيضا إلى الفهم ، أعنى فهما نابعا من الخبرة الشخصية . بأن أساتذة وأولاد مارلبوروا كانوا ينتمون إلى عالم بعيد عن العالم الذى كان ينتمى إليه أولاد سويندون . وظهرت اتجاهاتهم اللاشعورية بوضوح فى مواقف دقيقة كاستخدام بعض أولاد مارلبوروا لفظ « أجلاف » ، Yokels « وسفلة » ، Psoler عند كلامهم عن سكان المنطقة . ولم يكن معظم مدرسى المدرسة الخاصة ، يوما نا فى مدرسة غير المدارس الخاصة ، سواء عندما كانوا تلاميذ أو مدرسين . وكذا فإن معظم مدرسى الأسر لم يقوموا أبدا بالتدريس خارج مدرستهم الحالية .

وكان أولاد سويندون يضيقون بعنف من الصورة الوهمية التى كانوا قد وضعوها فى أذهانهم عن أسباب الرفاهية والراحة بالمعهد . وفى بداية الأمر لم يكن سوى اثنين من هؤلاء الأولاد البالغين ست عشرة سنة يشترك الواحد منهم مع ولد آخر فى حجرة الاستذكار ، أما الباقون فكان عليهم أن يتحملوا العمل فى ظروف اسبرطية بانخراطهم فى فصل كبير وكان عليهم أن يحاولوا الاستذكار فيه . ولأنه لمن الصعب للغاية على أى شخص عرف اليسر والراحة فى الاستذكار بالمنزل أن يكيف نفسه لحياة كهذه . فالازعاج الذى يتسبب فى إحداثه الأولاد الآخرون وقرع الأجراس

المتكرر وقواعد النوم وإطفاء النور كلها أمور تشكل قيودا جنونية على حرية الشخص وتطبيقها على دراسة كل واحد عملية صعبة للغاية .

وكانت القيود على الحياة الاجتماعية مرهقة أيضا: كالقيود على استخدام الدراجات البخارية (في منطقة تفتقر إلى وسائل المواصلات العامة) واللقاء الصديقات من البنات وللتجول البسيط بالبلدة عندما يحس الشخص بالرغبة في تغيير الجو المحيط به . وأحس أولاد سويندون أن المدرسة تنظر باحتقار إلى كرة القدم :

« فهناك ثلاثون ملعبا للرجبي ، وملعب واحد لكرة القدم ... إنهم يعتبرون كرة القدم لعبة لا تليق » : كم من رجال المدارس « الخاصة » بدأوا يدركون مدى أهمية طقوس كرة القدم في أيام السبت بعد الظهر بالنسبة لحياة ملايين الناس في إنجلترا ؟ ثم كان هناك الحرمان من مكانة اجتماعية كان أولاد سويندون يعتبرونها حقاً مشروعاً لهم فلو أنهم ظلوا بمدارسهم المحلية لأصبحوا في السنة الأولى من الصف السادس ، وأصبحوا الآن مهمين يتمتعون بقدر كبير من الحرية . ولكنهم في مارلبورو في الصف السادس مطلقاً في أول سنة من التحاقهم بها . والواقع أننا علمنا أن ثلاثة فقط من بين الواحد والعشرين هم وحدهم الذين وصلوا إلى مرتبة الصف السادس . وجدوا أنفسهم تحت سلطة أولاد من نفس عمرهم أو حتى أصغر منهم . وإلى جانب هذا بدا لهم الكثير مما ينظر إليه طلبة مارلبورو الأصليون بجدية كالعمل من أجل الأسرة « أو الهتاف للأسرة ، عملاً صبيانياً ^(١) »

وازداد الموقف خطورة بسبب صدام آخر بين اتجاهات مختلفة تماماً ، وهو في هذه المرة صدام حول طبيعة السلطة بالمدرسة . ففي معظم مدارس الدولة حالياً يضطلع الألفوات أو العرفاء Prefects بوظائف إدارية صغيرة

(1) cf. the Comment by Marget Miles, P. 139 above.

وتستهدف مساعدة هيئة التدريس ، ونادرا ما يحاولون فرض سلطتهم الشخصية على زملائهم . ولكن في مارلبورو ظهر أن ضباط الأسر يصلون في أهميتهم إلى أهمية رئيس الأسرة من المدرسين نفسه ويتمتعون بصلاحيات ضخمة بما في ذلك توقيع عقوبة الضرب على زملائهم . ولقد أخذوا مسؤولياتهم بجدية بحيث بدا ذلك مثيراً للسخرية في نظر أولاد سويندون . وفيما يلي اقتباس ذكره لامبرت Lambert من مدرسة أخرى ولكنه يبدو منطبقاً هنا :

د قال واحد منهم : لم أكن سعيداً بالطريقة التي كانت تتمن بها شخصيات الأفراد على أيدي «العرفاء» فيما بين السابعة عشرة والثامنة عشرة ، وقد ظهر من تصرفاتهم أنهم لم يكونوا إلا على خبرة محدودة جداً بالإنسانية التي يحكمون على غيرهم باسمها (١) .

وثمة عدد قليل من أولاد سويندون لم يستطيعوا قبول سلطة تبت لهم أنها غير معقولة على الإطلاق ، فتحدوها عدة مرات بخشونة لم تؤد إلا إلى زيادة اغتراب أولاد مارلبورو عنهم . وثمة عدد قليل آخر عمدوا إلى تجاهل قواعد السلوك وأصروا على كذبهم خلال استجوابهم . وأحدهم وعمره سبع عشرة سنة عوقب بأنضرب في نهاية الأمر .

وكانت هناك جوانب أخرى لا طعم لها مثل الدين الاجباري والمباريات الاجبارية (وحتى أولئك الذين كانوا ولوعين بالمباريات وجدوا أن الوقت والأهمية المخصصين زائدان عن الحد) . وحتى ما كان يوحى بشيء من العظمة كان من الأمور التي تبعث على الضيق ، مثل ارتداء الزي الكامل أثناء الوجبات الرسمية وطريقة معاملة الخدم . وعندما كان أحد أولاد سويندون يخاطب أحد خدام المعهد بأدب بقوله «السيد» ، ينبرى

أحد طلبة مارلبورو ليصححه . وكما ورد في البحث الجماعى فإن غالبيتهم كانوا يجدون أن الحديث المتصل بالجنسية المثلية والحياة الداخلية بالمدرسة مما يثير اشمزازهم ، ويجب أن نذكر أن مارلبورو قد أسست أصلاً لأبناء رجال الدين .

كل هذا ربما كان يستحق العناية المبذول فى سبيله لو أنه تحقق لأولاد سويندون توقعاتهم الأكاديمية . ولكن هنا أيضاً كانت خيبة أمل . فهم لم يدركوا أنه مع بقاء كل التلاميذ تقريباً حتى سن الثامنة عشرة فإن فصول المستوى المتقدم كانت كبيرة فى حجم تلك الفصول بالمدارس الأكاديمية إن لم يزد عنها . ولاشك أن التوترات الشديدة الأخرى التى كانوا يمرون بها قد أعاقت التركيز . وقد يكون أيضاً كثرة المناشط المتاحة الزائدة عن المنهج التى بدأوا الاشتراك فيها تدريجياً كالموسيقى والرسم مما ساعد أيضاً على تشتيت أذهانهم .

ومهما كانت الأسباب فإن نتائج المستوى المتقدم لأولاد سويندون وإن لم تكن متدهورة جداً كانت مخيبة للأمل . فلقد جاءت نتائجهم أقل من نتائج المجموعة التى قورنوا بها من طلبة مارلبورو سواء فى الكم أم فى الكيف ، ويبدو أنه كان من المحتمل وصولهم على الأقل إلى نفس المستوى لو أنهم ظلوا بإحدى المدارس الأكاديمية فكانوا إذن قد قضوا وقتاً أسعد بالإضافة إلى ذلك .

على أن هذا الملخص الموجز لا يمكن أن ينبى بحق البحث الممتاز الذى ينبغى أن يقرأه جميع المدرسين ورجال الإدارة التعليمية وجميع الآباء السياسيين حتى الذين لديهم أقل اهتمام بالتربية ، ولكنه ربما يكون قد قلل من التأكيد على نقطة واحدة مع أنه لم يتجاهلها ، هى صعوبة تكامل الملتحقين الجدد فى سن السادسة عشرة حتى فى مجتمع قائم ترعرع فيه جميع

للتلاميذ الآخرين منذ كانوا في الثالثة عشرة. وهذه الصعوبة قائمة حتى في ظل النظام التعليمي الحكومي. ان الملتحقين الجدد يكونون دائما عرضة للتبذ لاسيما أن عمرهم وجسمهم يتطلب سرعة أخذهما في الاعتبار من جانب الآخرين : فهم صالحون لأن يكونوا في مواقع السلطة والتمتع بالامتيازات (كما كان حال أولاد سويندون في مارلبورو) ومن ثم كان الأولاد الأصغر منهم ينظرون اليهم بغيرة وحسد الذين « اتموا » للدرسة من قبلهم بسنين عديدة ، وليس من السهل أيضا في أية مدرسة غريبة أن يتكيف الشخص بسرعة للأنماط المختلفة من السلطة والعادات والتدريس والتعلم .

ويذكر التقرير الكثير لصالح مارلبورو ، فيشير إلى أنه بقدم السنة الثانية صار أحد أولاد سويندون محررا لمجلة المدرسة . بينما كان ولد آخر يمثل المدرسة في لعبة الرجبي ، وثالث كان رئيساً لفريق ألعاب القوى ، ورابع كان رساما ناجحا ، ويذكر أيضا أن ثمانية أولاد من الواحد والعشرين صاروا عرفاء بالأسر وثلاثة منهم رؤساء لأسرهم .

إن عملية التكامل بالتأكيد كانت تتم بسهولة بأكثر للمدرسة (رغم أن ذلك ليس بالضرورة بالنسبة للأولاد) لو أنها كانت قد اختصت بأولاد الثالثة عشرة بدلا من أولاد السادسة عشرة . ذلك أن أولاد الفئة الأولى كانوا إذن يتحملون ما يلقونه بصمت أكثر ويتوافقون باستعداد أكثر ، ولكن التحدي الذي فرضته المجموعة الأخرى بما تنهيا لأفرادها النضج والقوة كان أقوى بكثير مما تستطيعه المجموعة الأولى ، ولا شك أن تقرير (لامبرت — ستاج) قد درسه بعناية كل مدرس بمارلبورو وكثير من الأولاد الكبار أيضا . فاذا ما أدى (كما نأمل) إلى التصميم على بناء الاصلاح على أساس هذه الخبرة وعلى إدراك أن الخطوات التالية يجب أن تكون جذرية ، فإن هذا المشروع الجريء سيكون إذن جديرا بالعناية .

وثمة استنتاجان أساسيان يمكن أن يستخلصا من خبرة مارلبورو .
أولاً : كما يذكر لامبرت ببساطة أنه إذا كان لابد من عمل محاولة لتحقيق
التكامل على نطاق واسع ، فإن الحياة المدرسية بالمدارس الخاصة مكروهة
لا تجذب قبولاً من جانب قطاع كبير من المراهقين من بيوت الطبقة الدنيا
الوسطى والطبقة العاملة الذين ألفوا المدارس المحلية .

ثانياً : في ضوء المعلومات السيكولوجية والاجتماعية الحديثة تصبح
النوعية التربوية الخاصة بالكثير مما يحتل المركز في حياة المدرسة الخاصة ،
محل إعادة نظر كثير . أفليس من واجب الدولة قبل أن تسمح بدخول
الأطفال نظام التعليم الحكومي بل وواجب دافعي المصروفات المدرسية انفسهم
أن تطالب هذه المدارس الخاصة بادخال تغييرات أساسية على ما يجد فيه
أكثر المربين دربة أساساً غير متين للاعداد للحياة ؟ إن أكبر نصيب من
المسئولية لمجابهة هذا الموقف المخير يقع على الحكومة لأن المدارس الخاصة ،
ما تزال تستقبل أطفالها من قادة المجتمع بصفة رئيسية ، ولأنها ما تزال
ترى أن واجبها بصفة رئيسية هو تربية قادة المستقبل ، وما تزال تضطلع
بهذه الوظيفة . ويبدو أكيداً أن الخطوة الأساسية الأولى في التكامل إنما
تكون بالقيام بتبادل واسع النطاق بين مدرسي مدارس الحكومة وبين
مدرسي المدارس الخاصة . ويمكن تحقيق هذا التكامل بسرعة وفعالية أكثر
من وضع عدد كبير من تلاميذ البيئات المحلية في ظل نظام عتيق Ancien
régime للممارسة التربوية .

إن الموقف الراهن هو تحد قائم لجميع المؤمنين بأن حاجتنا الرئيسية
هي إلى التربية من أجل الديمقراطية بما تتضمنه من احترام دقيق للآمال
والمخاوف والميزات الخاصة ، مع جعل الأولوية والأهمية لتربية أناس

آمنين وسعداء . وعلى هذا يجب على المدارس الخاصة أن تغير أو تتغير .
إن لدى هذه المدارس ما يمكنها أن تقدمه من النتائج الحسنة إذا ما حملت
على السير في التيار الرئيسى للحياة التربوية للامة . ويبدو أن أسرع الطرق
وأنجعها لعمل ذلك هو القيام بدمج المدرسين أولا وليس الأطفال .

ولسوف أتناول المعانى التى يتضمنها هذا الاتجاه فى الفصل الأخير
من هذا الكتاب .